الأسئلة الضرورية حول هزيمة الأمة في هزيمة العراق

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

الذين يحكمون ويتحكمون في البيت الأبيض أصحاب مشروع ما زال في بدايته وقد اكتسب قوة دفع كبرى مما جرى في بغداد خاصة ، وفي مقدمة هؤلاء تشيني ورامسفيلد وولفوتز ، بالإضافة إلى شخصيات نافذة أخرى ، منها ريتشارد آرميتاج نائب وزير الخارجية وجون بولتون السكرتير المساعد لوزير الخارجية لشؤون نزع التسلح ، وزالماي خليلزاد ضابط ارتباط البيت الأبيض بالمعارضة العراقية ، ووليم كريستول رئيس تحرير مجلة ويكلي ستاندارد وريتشارد بيرل رئيس مجلس المستشارين العلميين لوزارة الدفاع (الذي استقال من منصبه الرسمي مؤخرا) .

يقول تقرير صادر عن شبكة إيه بي سي نيوز الأمريكية إن هذه الشخصيات كانت جزءا من مجموعة مكونة من ثماني عشرة شخصية ، بينهم عشر شخصيات تشغل مناصب مفتاحية في إدارة بوش الراهنة ، تأسست منذ سنة ١٩٩٧ باسم (مشروع القرن الأمريكي الجديد) . وجعلت هدفها " إسقاط نظام صدام حسين ، واتباع سياسة أكثر حزما في الشرق الأوسط "، وتنبأت بأن "هذا التحول في السياسة الأمريكية قد لا يتحقق إلا بصورة بطيئة ، وذلك ما لم تحدث في الولايات المتحدة حادثة استفزازية كارثية من وزن كارثة تدمير الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر ".

من هنا فإن ما جرى في العراق ليس إلا عملية واحدة من مسلسل (إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط بما يناسب المصالح الأمريكية) كما قال وزير الخارجية " المعتدل " كولن باول ، وهو مسلسل يقوم على اعتبار (منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير) كما قال مدير السي آي إيه " المهذب " جورج تينيت .

ومن هنا فلا مجال لأحد في البلاد العربية أن يغالط نفسه . إن الولايات المتحدة تريد أن تشدد قبضتها لتضييق الهامش الذي كان متاحا لأصحاب

المنطقة في حكم بلادهم ، ومطلوب من كل حاكم عربي دون استثناء أن يكون بمثابة مندوب سامي أمريكي يحكم البلاد بناء على التعليمات التفصيلية التي يتلقاها من وزارة المستعمرات الأمريكية التي هي وزارة الدفاع بقيادة دونالد رامسفيلد . وستتناول تلك التعليمات خليطا من المسائل المختلفة ، تضم التعليم والاقتصاد والسياسة الخارجية ومعاملة الأقليات والصحافة والجمعيات الأهلية .. الخ .

والتصدي لهذه السياسة الهجومية المداهمة لن يكون ممكنا إذا لم نستفد ـ حكاما ومحكومين ومؤسسات ومنظمات أهلية وأحزابا ـ من تجربة العراق .. العراق الذي كشف عن مواضع خلل كان يجب سدها في النظام الذي يعد مع ذلك من الأنظمة العربية الأكثر تقدما في المنطقة .

معركة المشاعر الموحدة

والمسافة ليست بعيدة بين الذي حدث في بغداد صباح يوم الخميس الماضي وبين هذه التساؤلات التي نرى من حقنا وواجبنا أن ننبري لإطلاقها . وربما كانت الحصافة تستدعي الانتظار ريثما تتكشف الأسرار التي تكمن وراء الانهيار الطوعي المفاجئ غير المتوقع للدفاعات العراقية وللنظام الحاكم في بغداد ، ودخول الدبابات الأمريكية إلى عاصمة الرشيد على النحو الذي فوجئ به العالم وفجع به العرب والمسلمون ، والذي كابدنا تجرع حنظله المسموم منذ يوم الثلاثاء الماضي . بيد أن تساؤلاتنا ليست بحاجة إلى مرور زمن كي تتبلور وتتدفق ، وذلك من موقع أن المعركة التي دارت في العراق لم تكن معركة العراق وحده ولكنها معركة المشاعر الموحدة في شعوب الأمة بأسرها والمعركة التي ستقرر مصير المنطقة ، بما فيها إيران (مثلا) . إن هذا أوان إطلاق الأسئلة التي تدور في الرؤوس . وسنحاول ، ربما في الأسبوع القادم ، أن نجيب عليها أو على بعضها على الأقل .

ما أسباب هذه الهزيمة ؟ وهل لهذه الأسباب علاقة بأسباب هزائم أخرى سابقة ؟ وفي السياق نفسه من واجبنا أن نحذر متسائلين : وهزائم

أخرى لاحقة ؟ هل ثمة شيء مشترك بين هذه الهزيمة الأخيرة وبين هزائمنا في عام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٩١ ؟

ونقول قبل أن يسألنا أحد : هل كنا نتوقع أن يتغلب العراق على أمريكا : نحن لم نكن نتوقع ، بطبيعة الحال ، أن تنتصر الآلة العسكرية العراقية على الآلة العسكرية الأنجلو ـ أميركية ، وإن كان الإعلام العراقي قد ثابر حتى آخر ظهور لوزير الإعلام السيد محمد سعيد الصحاف أمام الصحافيين على القول إن النصر محتوم للعراق وإن القوات العراقية قد ردت هجمات الغزاة وسحقت قواتهم .

من السحاب إلى الحضيض

ثم نضيف ـ والحق يقال ـ إن صمود واحد وعشرين يوما في المعركة ليس أمرا هينا إذا أخذنا بالحسبان الفارق بين الطرفين المتواجهين . ولذلك نحني هاماتنا ونترحم خاشعين على جميع أولئك الرجال الأبطال ـ أحياء وأمواتا ـ لا سيما الشهداء ولا سيما أبطال أم القصر والبصرة والناصرية وكربلاء ، الذين دفعوا من دمائهم أو من عرقهم ثمن أيام الصمود . ونقول أخيرا إننا من الذين يتفهمون إن المعركة كانت مفروضة على العراق ، ولم يكن اجتنابها ممكنا مهما فعلت الحكومة العراقية ، وهذا ما ثبت بعد موافقتها على عودة المفتشين ونزولها على إرادة ما يدعى المجتمع الدولي .

وقد كان في الوسع قبول الهزيمة نفسها ، أو تفهم الاستسلام الذي حدث ، لو أن النظام الذي سقط ، وهو العزيز على الشعب الفلسطيني المدين له بالكثير ، لم يحمل الأمة على أجنحة الأثير ويحلق بها فوق السحاب ، ثم يسحب السجادة الطائرة من تحتها فإذا بها تسقط بغتة مع سقوطه ، وينكسر شيء فيها ، في مرحلة لا ندري هل سيتسع الوقت خلالها لالتئام هذا المكسور ، أم أن الأمة ستخوض معاركها الحتمية القادمة ـ وأغلب الظن القريبة ـ وهي تحمل الجرح البليغ والكسر المعوق.

ما سر هذا السقوط الكبير ؟ أهو الفارق الهائل في التقنيات الحربية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما السبب في صمود بلدات ومدن الجنوب على الرغم من ذلك الفارق ، وانهيار الدفاع عن بغداد دون قتال ؟ وإذا كان الأمر كذلك

فلماذا أيضا استطاعت القوات العراقية أن تقاتل العدو في مطار صدام ، الذي نظم وزير الإعلام جولة إليه لصالح الصحافيين ليتأكدوا بأنفسهم من صدق كلام الوزير ؟ هل نظم تلك الرحلة ؟ هل استرد الجيش العراقي المطار حقا ؟ أم صحيح ما يقوله الفريق الشاذلي من أن صمود مناطق الجنوب راجع إلى أنها كانت نشاطات مقاومة شعبية ، وأن الفشل في بغداد راجع إلى أن القائمين عليها قادة في الجيش النظامي ؟ هل معنى ذلك أن الحرس الجمهوري كان أسطورة وكيانا مدللا لا غير وأنه آثر السلامة وعقد صفقة مع الأميركيين سلم إليهم بموجبها بغداد مقابل ضمان سلامة أفراده ؟ وفي حالة انعقاد صفقة ما ، وهذا احتمال يبدو محتوما على ضوء الوقائع ، من هو يا ترى الذي عقدها من الجانب العراقي ؟ وهل صحيح أن الضباط العراقيين المأجورين مع الحملة الأمريكية لعبوا دورا خفيا فظيعا في إقامة اتصالات واسعة مع نظراء لهم أو أقارب أو معارف سابقين في الحرس الجمهوري ، وأن تلك الاتصالات أثمرت تحييد الجسم الأكبر في الحرس الجمهوري ؟

ما قيمة الدبابات في الحرب التي يحرز فيها العدو تفوقا مطلقا في الجو ؟ وما قيمة بقية الأسلحة من مشاة ومدفعية ؟ هل عجز المقاتلون العراقيون في المطار عن الصمود لأن التفوق الجوي للعدو لم يدع لهم أية فرصة للبقاء والتواجد في مواقعهم ؟ هل صحيح أن المبدأ القديم القائل إن التحام طرفي القتال يؤدي إلى تحييد طيران العدو المتفوق هو مبدأ لاغ بالنظر إلى ما بلغته الأسلحة الذكية من دقة في التسديد وإصابة الهدف ؟

أين الرئيس ؟!

ثم نأتي إلى ما يتعلق بالقيادة العراقية وعلى رأسها الرئيس صدام حسين : أين الرئيس ؟ وأين أعوانه ؟ أين طه ياسين رمضان ، وطارق عزيز ؟ ومحمد سعيد الصحاف مثلا ؟ هل قتلوا في الغارة الجوية التي تحدثت عنها الأنباء يوم الأربعاء وقال الطيار الذي نفذها آنذاك إنه قصف مبنى كانت تجتمع فيه قيادات عراقية ، بعد تلقي إخبارية عن مكان الاجتماع وزمانه باثنتي عشرة دقيقة فقط ؟ وإذا كان هذا الافتراض صحيحا فهل معناه أن الذي عقد اتفاق التسليم مع الأمريكيين هو أحد المسؤولين الذين

انتظروا تلك الفرصة ، وبعبارة أخرى ، أنه كان وراء الإخبارية التي تحدث عنها الطيار الأمريكي ؟

ومن ناحية أخرى : هل كان محمد سعيد الصحاف يعلم ، أم لم يكن يعلم ، أثناء ظهوره الأخير قبل يومين اثنين من دخول القوات الأمريكية بغداد أن الأمور منتهية وأن الدبابات الأمريكية التي ظهرت وراءه من بعيد كانت على وشك دخول بغداد التي صارت مدينة مفتوحة ؟ لماذا ثابر الصحاف في ذلك الظهور الأخير على استخدام اللغة واللهجة نفسها التي استخدمها منذ البداية ، أعني لهجة الواثق الذي يفند مزاعم العدو دون أن يعرف التردد ؟ وإذا كان الصحاف لا يعلم بالصفقة الجارية فهل معنى ذلك أن فريق الحكم كان لا يعلم بما يجري في الميدان حربيا وسياسيا وأن قادة الوحدات العسكرية في العاصمة كانوا قد استكملوا الإعداد المحكم لانقلاب في الظلام ؟

وأخيرا وليس آخرا في معرض الأسئلة : ما هذا النهب والسلب في المدن الكبيرة بالعراق ؟ وأي معنى للحزب الحاكم إذا عجز عن تربية أجيال يمكن الاعتماد على تصرفها في وجود القيادة وفي غيابها ؟ وأين بقية المؤسسات الدعوية والشعبية والنقابية والشبابية من هذا الأمر ؟ وأية أهمية لرسالة التربية والتعبئة والتثقيف السياسي والوطني إذا ظلت نسبة لا يستهان بها من المجتمع مستعدة في اللحظة المناسبة لنهب كل ما تقع عليه عينها ؟ هل يغني تدبيج البرامج السياسية وصوغ الشعارات وكتابة المنشورات والتحليلات الصحافية عن التأثير الفعال في المجتمع ، وهو حصرا التأثير الذي يحول بين أفراد المجتمع وبين نهب المؤسسات العامة أو الأموال الخاصة . فالنهب الذي يظهر في مناسبات كهذه يعني ببساطة أن المحبوسين بتهمة السرقة ليسوا جميع اللصوص الموجودين في البلد ! ولماذا - من ناحية أخرى - يكثر هؤلاء النهابون ؟ هل لأنهم فقراء معوزون ؟ أم لأنهم يعتقدون في قرارتهم أن الفئة الحاكمة تقوم بنهب كبير على الرغم من الشعارات التي ترفعها للاستهلاك المحلي ، وأن المحكومين يجب أن يغتنموا فرصتهم متى لاحت ؟ ثم نتساءل في الختام : هل فئة النهابين

هذه هي نفسها فئة الذين يلوحون لقوات الاحتلال بالأيدي ، ويتقدمون متطوعين للتجسس على مواطنيهم لصالحها ؟

هذه بعض الأسئلة الضرورية في التو والساعة . لأن آلة الحرب الأنجلو ـ أمريكية ما زالت تعد نفسها في حالة طوارئ للقفز على بلاد أخرى في المنطقة . وربما تنتقل بعض القطع البحرية الأنجلو ـ أمريكية من مياه الخليج ، إلى مياه البحر الأبيض المتوسط !